الدنيا ألوان

ينظر المرء من حوله ليجد أن الألوان تصبغ الحياة والوجود؛ منها ما يريحه ويتناسب مع ذوقه، ومنها ما لا ينسجم معه. وإنما الأهم هو أنه يتأثر بها، يتذوقها ويتفاعل معها حتى بالفطرة. فكثيرا ما يلجأ المرء إلى الألوان للتعبير عن حالة نفسية، أو للاستفادة من ميزاتها ومعانيها، ولو كان ذلك أحياناً من دونه. وهذا ما يمكن اختباره عند الجلوس في الطبيعة أو على شرفة المنزل، عبر التأمل في ما يضفيه لون الطبيعة الخضراء من مشاعر هدوء وصفاء في النفس، والتجربة خير برهان. لعل ما تقدم ليس بجديد؛ فعلم النفس الحديث وضّح بعض معاني الألوان وميزاتها، وبدأ باستعمال الألوان في العلاجات المختلفة.. لكن هل استطاع كشف اللغز القديم الذي جمع الألوان بالإنسان، والسر وراء تواصل هذا الأخير معها والتأثر بها؟

لسبر أغوار حقيقة هذا اللغز–السر، لا بد من الاسترشاد بعلوم الباطن الإنساني، أو ما يُعرف بعلوم «الإيزوتيريك» لتقصّي النواحي الخفية في الكيان الإنساني وفي الوجود؛ فهذه العلوم تفيدنا أن «الألوان وُجدت مع بدء الوجود. فلا وجود من دون ألوان، ولا ألوان من دون وجود». وتكشف ما حيَّر العلماء والباحثين في ماهية اللون وكيفية تأثيره في النفس؛ موضحةً أن الرابط الخفي الذي يجمع الإنسان والألوان هو– بكل بساطة– أن «الألوان قائمة أصلاً في كيان الإنسان، وبالتحديد في مكوناته الباطنية اللامنظورة؛ أي في أجهزة وعيه، وهي تجسيد لذبذبات». وكل ما في الوجود مكوّن من ذبذبات: الإنسان، الأرض، الأفكار، المشاعر، الألوان.. إلخ. فالذبذبة هي روح الذرة ومحركتُها، واللون هو أحد أردية الذبذبة. وتختلف الألوان بحسب سرعة حركة تذبذبها.. بمعنى آخر؛ إن سرعة حركة الذبذبة هي التي تضفي لوناً معيناً دون سواه، أي ما يحدد اللون، لون أي شيء. خلاصة القول إن كيان الإنسان مكوّن من ذبذبات، والألوان كذلك. لذا، يتمّ تفاعل الإنسان مع الألوان عبر تفاعل ذبذبات أجهزة وعيه اللامادية مع ذبذبات الألوان في المحيط من حوله.

من هنا فإن ما تقدم يُخرج تفاعل المرء مع الألوان من محدودية عالم الجسد والحاسة البصرية، ولعل هذا ما يفسر مقدرة بعض الأشخاص على تمييز اللون من دون استخدام حاسة البصر، وذلك عن طريق حاسة اللمس الباطنية؛ أي تحسس اللون عن طريق الهالة الأثيرية.

من ناحية أخرى، تؤكد علوم الإيزوتيريك حقيقة أن «الإنسان على علاقة بكل شيء في هذا الكون الرحيب– سواء وعى ذلك، لم يعه– فالإنسان جزء من كل، ولا يستطيع أن يكون عالماً بمفرده، أو كلاً وحده!». يجب أن يعي أنه جزء من الكل الذي يحوي أجزاء عديدة أخرى، والأجزاء عادة تترابط في ما بينها، بل يجب أن تترابط كحلقات السلسلة، وإلا فهي لن تكون سلسلة، بل مجرد حلقات متفرقة متباعدة، لا معنى لوجودها.

من هنا يخضع الإنسان لتأثير موجودات الكون برمته بما فيها الألوان، وإنما يبقى المرء في تفاعلاته «سيد ما يعرف وعبد ما يجهل»؛ فبقدر ما يوسّع معرفته يعي تفاعله مع الموجودات من حوله، لا.. بل يعي أيضاً مدى تأثير دوره فيها، من منطلق أن الإنسان هو المحور والهدف دائماً وأبداً.■

د. رانيا فرح– لبنان